شعر النقائض خصائصه وأثره في تطور اللغة والأدب

1-مفهوم النقائض:

"النقيضة" قصيدة يرد بها شاعر على قصيدة لخصم له فينقُض معانيها عليه: يقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو. وتكون القصيدة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويّتها.

قال الأخطل من البحر البسيط على رويّ الراء المضمومة:

خفّ القَطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوىً في صرفها غِيَرُ

فأجابه جرير من البحر نفسه وعلى الرويّ نفسه:

قل للدّيار: سقى أطلالَك المطر قد هجتِ شوقا وماذا تنفع الذكرُ

وقد تختلف أحيانا حركة الروي في النقائض كقول الفرزدق من البحر الكامل على اللاّم المضمومة:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطول

فأجابه جرير من البحر نفسه ولكن على اللاّم المكسورة:

لمَنِ الدّيارُ كأنها لم تُحلَلِ بين الكناس وبين طَلْح الأعزلِ

2-نشأة النقائض:

لقد كان للعصبية التي عرفتها البصرة وخراسان أثرها في عودة الهجاء إلى ساحة الشعر بعد أن هجره الشعراء خضوعا لتعاليم الإسلام، وهو ما ساهم في ظهور فن النقائض، وقد لخص بعض الدارسين عوامل نشأة النقائض إلى أسباب اجتماعية، وأخرى عقلية وهو ما ذهب إليه شوقي ضيف، ونجمل هذه العوامل على النحو الآتي:

أولا-العوامل الاجتماعية:

وتتمثل العوامل الاجتماعية في حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملاهي يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة. فأهل المدن بحاجة إلى أسباب لتمضية وقت الفراغ، ومن المعروف أن ذلك يتم إمّا بالدرس، والنظر العقلي، وإمّا باللهو.

وقد انتشرت في المدن العربية مجالس للدرس العقلي، واللغوي، والديني. وظهرت إلى جانب تلك المجالس، مجالس للّهو، والطرب. وضمّت مكة، والمدينة هذا النوع من المجالس، بينما فرضت طبيعة العراق القريبة الصلة بالحياة البدوية انتشار فن الهجاء، وأخذ الشعراء هذا السبيل لتمضية أوقات الفراغ بين الناس، ولتسليتهم.

فكان الشاعر ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته، وأمجادها، ويتعرّض لخصومها من القبائل بذكر عيوبهم، فيتصدّى له شاعر من الخصوم يرد عليه بقصيدة على نفس وزن القصيدة الأولى، وروّيها. ويستمع الناس للقصائد، ويعلّقون، ويناصرون هذا الشاعر أو ذاك، ويحكمون على الأقدر، والأبرع.

وتحوّل الهجاء من غرض شعري عرفه العرب منذ الجاهلية، إلى سبيل للتسلية فرضته طبيعة الحياة، وخصوصيتها في العصر الأموي.

ثانيا-العوامل العقلية:

إلى جانب العوامل الاجتماعية تبرز عوامل عقلية أساسها تطوّر التفكير العقلي عند العرب، وانفتاحه على آليات الحوار، والجدل، والمناظرة، والتي عرفها العرب مع مختلف المذاهب، والملل، والفرق السياسية، والدينية، والمذهبية، فأخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل، ومفاخرها ومثالبها، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها، وفي أدلة خصمه لينقضها، فأصبح الشعر مناظرات شعرية، تتّخذ من سوق المربد مسرحا لها، يتّجه الشعراء إليه، ويجتمع الناس حولهم ليسمعوا، ويحكموا بين الشعراء.

3-أهميّة النقائض:

لقد حملت النقائض بما فيها من هجاء، وتصوير للخصومة المشتعلة بين الشعراء، والتي بيّنت عودة العصبية الجاهلية بعد أن تجنّبها المسلمون خضوعا لتعاليم الإسلام، قيما أدبية، وسياسية، واجتماعية ذلك أنها أرّخت لفترة زمنية من التاريخ الإسلامي، بما اشتملت عليه من تفاصيل الحياة في ذلك الوقت. ويجمل عمر فروخ قيمة النقائض على النحو الآتي:

3-1-القيمة السياسية:

لقد صوّرت النقائض النزاع السياسي على الخلافة بين الأمويين وخصومهم، ومع أن الأمويين قد انتصروا في هذا النزاع انتصارا حاسما، إلاّ أنّ الشعور القبلي قد بُعث من جديد.

وكان هدف الشعراء الذين خاضوا في هذا النزاع هو التكسب، ولم يكن غالبيتهم يحملون عقيدة أموية أو زبيرية، أو علوية فقد انقلب الشعراء الزبيريين إلى أمويين، ومع أنّ الفرزدق كان يمثل العلوييّن فقد عرّض بآل البيت ومدح بني أميّة، ورغم أن الأخطل كان نصرانيّا إلاّ أنه

مدح الخلفاء مدائح دينية تناقض عقيدته. ولكنّ الأمر ليس نفسه عند كلّ الشعراء. فعمر بن أبي ربيعة لم يمدح أحدا ولا قال في المناقضات.

3-2-القيمة الاجتماعية:

يبيّن الشعر الأموي أن البداوة كانت صفة غالبة على الحياة آنذاك، فالشعر الأموي مملوء بالمفاخر الجاهلية والبدوية كالفخر بالأنساب وبأيام العرب، وبالكلام عن الثأر.

وظلّ شعراء المناقضات حتى أواخر العصر الأموي يعدّون الحياة الحضرية في باب العيوب القومية، فالأخطل قد هجا الأنصار لأنهم زرّاعون، وجرير ظلّ إلى آخر حياته يهجو بني مجاشع لأنهم حدادون، ذلك أنّ الحدادة وسائر الصناعات كان يقوم بها العبيد.

ولكنّ هذا لا ينفي الحس الإسلامي في الشعر الأموي، فقد امتلأ بالألفاظ والآراء الإسلامية. وهذا الأخطل يقول:

نفسي فداءُ أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذَ يومٌ عارمٌ ذكَرُ

الخائضُ الغَمْرَ والميمون طائره خليفة الله يُستسقى به المطر

3-3-القيمة اللغوية:

لقد حفظ شعراء النقائض اللغة العربية صافية كما كانت في الجاهلية، فقد حفظوا العدد الأوفر من ألفاظها حتى قيل: لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة، وقيل بل ثلثاها. فالألفاظ التي حُفظت في النقائض كانت كثيرة، وكان أكثرها غريبا متّصلا بالمعاني الجاهلية القديمة. بل لعل قسما من ألفاظ النقائض كان أكثر غرابة من ألفاظ المعلقات.

وكذلك كانت تراكيبهم متينة تجري على الأسلوب العربي القديم. فالنقائض مزيج من المعاني القديمة والجديدة، ولكن في لغة قديمة.

3-4-القيمة الأدبية:

لقد كانت النقائض تقليدا واضحا للمعلقات، في شكل القصيدة، وتعدّد أغراضها، وطول النفس فيها، وتميّزها بالفخر بالأنساب، والهجاء القبلي، والنسيب في مطالع القصائد.

وقد أضاف شعراء النقائض إلى الشعر العربي فنّا جديدا هو الشعر السياسي، وعلى الرغم من أنّ هذا النوع من الشعر كان معروفا منذ الجاهلية فقد برزت طلائعه مع شعراء مثل النابغة، فإن شعراء النقائض قد وسّعوا هذا الفنّ ليصبح فنّا جديدا.

3-5-القيمة الفكرية:

رغم أنّ شعراء النقائض عاصروا نشأة علم الكلام، إلاّ أنّ أثر الحركة الفكرية في ذلك العهد لم يظهر في النقائض. فلا نجد مسائل الجدال الديني، ولا قضايا البحث العقلي، ولا بوادر الاتجاه العلمي قد اتّخذت طريقا إلى المناقضات.

4-شعراء النقائض:

4-1-الفرزدق:

هو شاعر تميمي، وكانت تميم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة، وتمتدّ عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات، وتتغلغل في نجد. ممّا جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمضرية في أيام كثيرة. ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حجر وسلامة بن جندل وعلقمة الفحل، وعدي بن زيد العبادي، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبدة بن الطبيب، ومتمم ابن نويرة، وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة، إذ ظهرت فيها متنبّئة تسمى سجّاح.

ولا يوجد ما يؤكّد السنة التي وُلد فيها الفرزدق، ولكنّ أغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة. ففي أخباره أنه قال: "كنت أهاجي شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان" وخلافته امتدّت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة، وفي أخباره أيضا أن أباه قدّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة 36، وقال له إن ابني هذا شاعر، فنصحه أن يعلّمه القرآن.

فقد نشأ الفرزدق في بيت كريم، مآثره ومفاخره لا تُدفع، فكان يعتدّ بعشيرته، وقبيلته. حتى إنه يعدُّ أضخم صوت لتميم في زمنه. وعُرف الفرزدق بأخلاقه الجاهلية الكريمة منها والذميمة. فقد عُرف بفسقه، وشربه للخمر، وعصبيته، وغلظته.

أمضى الفرزدق حياته في المديح والهجاء، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير لما في نفسه من خشونة وصلابة، وهذه الصلابة جعلته لا يبرع في الغزل، وكذلك كان جرير يتقدّمه في الرثاء. والفن الذي تفوّق فيه الفرزدق على جميع شعراء عصره هو الفخر. إذ كان يعتدّ بآبائه وقبيلته اعتدادا لا حدّ له.

4-2-جرير:

شاعر تميمي من عشيرة كليب اليربوعية، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته من المآثر والأمجاد، أما العشيرة فعرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير.

وكان أبوه عطية متخلّفا في المال مبخّلا، أمّا جدّه الحطفيّ فكان كثير المال من الغنم والحمير، وكانت أمه تسمّى أم قيس وهي من نفس قبيلته، وقد ولدت جريرا في بادية اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة.

وجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، فقد كان له أخوان ينظمان الشعر. وظلّ الشعر يتوارث في أبنائه.

وكان جرير يتقدم الأخطل والفرزدق في الموضوعات التي تتطلّب دقة الإحساس ورقة الشعور. إذ كان الأخطل متكلّفا يصطنع الوقار، وكان الفرزدق خشن النفس، أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة فانطوت نفسه على حزن عميق صفّى جوهرها، وزاد في هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان عفيفاً طاهر النفس.

4-3-الأخطل:

ينتمي الأخطل إلى قبيلة تغلب، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكوّن مجموعة قبائل ربيعة، وكانت تنزل في الجزيرة.

وُلد الأخطل في فرع من هذه القبيلة يسمى جُشَم بن بكر، في عشيرة من هذا الفرع تسمى بني الفَدَوْكَس في بادية الحيرة حوالي سنة 20 للهجرة. وكانت أمه مثل أبيه نصرانية. وهي من قبيلة إياد. ومن ثمّ نشأ الأخطل نصرانيّا. وظلّ حياته على دينه فلم يدخل الإسلام.

والأخطل في مديحه لا يقلّ براعة ومهارة عن الفرزدق وجرير، بل لا شكّ في أنه يتقدّم أولهما. وتميّزت أشعاره برصانة الألفاظ وفخامتها، وجزالتها، ومدائحه في عبد الملك تعدّ درره الشعرية.